

ابن الرومي

الشاعر المخبون

تأليف
جورج عبد مغموق
مجاز في الآداب

دراسات عليا في الفلسفة المشرقية

دار الكتاب اللبناني - بيروت

جميع الحقوق محفوظة للـؤلفِ والنـاشِرِ
دار الكتب اللبنايـة
برقيـة : كـتـالـبـان - بـيـروت
م ب : ٣١٧٦
بـيـروت - لـبـنـان

الطبعة الأولى ١٩٧٥

ابن الرومي

الشاعر المخبون

ابن الرومي

٨٣٥ - ٨٩٦ م / ٢٢١ - ٢٨٣ هـ

حياته من شعره

خصّ ابن الرومي حياته بقسم من شعره ، سجّل فيه كثيراً من وقائع عمره . فجاء شعره تاريخاً صادقاً لحياته وصورة ناطقة بأخلاقه وصفاته . وهو كما يتضح من لقبه ونسبه ، رومي الأصل ؛ اسم جدّه جريج أو (جورجوس) الرومي . ولا نعلم عن أسرته شيئاً يذكر ، إلا أن في بعض شعره تلميحاً إلى أن أمّه فارسية الأصل :

كيف أغضي على الدنية والفر

سُ خؤولي والرومُ أعمامي

وكان فخوراً بنسبه إلى اليونان كقوله من قصيدة في أبي سهل

النوبختي :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حجاباً
ومجدٌ وعيدانٌ صلابُ المعاجم

وما تتراعى في المرايا وجوهنا
بلى في صفاح المزهفات الصوارم

وقوله في رجل طعن بشعره ووصمه بروميته :

قد تحسن الرومُ شعراً
ما أحسنه عُريبُ
يا منكرَ المجد فيهم
أليس منهم ضُبيبُ

مولده

ولد ابن الرومي في بغداد ، وفيها قضى حياته وتوفي . وكان شديد التعلق بمدينة ، يكره الخروج منها ، كما يكره السفر عامة ، ولو في سبيل النجاح والفوز ، حتى اذا دفع الى هجرة قصيرة المدى ، كإلى مدينة (سامرا) مثلاً ، أخذ بالتشوّق والحنين ، حتى العودة الى وطنه . ويخبرنا في شعره انه عاش فقيراً ضيق العيش :

أبلىتمسُ الناسُ الغنى فيصيبهم
وأبلىتمسُ القوتَ الطفيفَ فيلتوي؟

ويستجدي الكساء ليقبه برد الشتاء فيأطل حتى يخشى ان
يأتي الصيف قبل ان يعطى بغيته فيقول :

إنك إن ماطلتني المواعدا
وأضرم الصيف الأجيح الصاخدا
جاء الكساء عند ذاك باردا

وترهقه الديون فيتذمر ويشكو :

وارتكب الديون إياي في
ظلك يهجوك باللسان الفصيح

ويستعطي درهمين في كل شهر من كل صديق :

لي في درهمين في كل شهر
من فقام ، ما يطرد الحوجاء

ويظهر ان شاعرنا لم يكن موفقاً في حياته العائلية . فقد
مات والده ، على الأرجح ، وهو صغير ، ولم يبق له غير أخ
أكبر ، كان يعول عليه في الشدائد . على ان هذا توفي والشاعر
لم يتجاوز الثلاثين كثيراً .

حدوثُ حوادثٍ منها حريقٌ ،
تَحَيَّفَ مَا جُمِعَتْ مِنَ التَّوَارِثِ

وكان له دار فاضطره احد « اللؤماء » الى بيعها :

ولي وطنٌ آليتُ أَنْ لا أبيعَه
وَأَنْ لا أرى غيري له الدهرَ مالكا
وقد ضامني فيه لئيمٌ ، وعزّني ،
وها أنا منه معصمٌ بجالكا

وتلك داراً أخرى فغصبتَه إياها (أنثى) جهاراً وفي ذلك
« أعجبُ معجب » :

تهضمني أنثى ، وتغصبُ جهرَةً
عقاري وفي هاتيك أعجبُ معجبٍ

وصف نفسه في شعرة واحدة ، اللون ، أسود الشعر ، حسن القامة معدولها . وإذا هو دقيق
الحسن ، عصبي المزاج ، كثير التردد والتشائم ، سريع الغضب ،
ولكنه سريع الرضى ، طيب القلب ، صفوح إذا ما استرضي .
وكان يحب الحياة ويتعشقها مع ما لقي فيها من بؤس وشقاء .
والحياة عنده ؛ لذة يتطلبها ويستمتع بها . واللذة عنده شهوة
الى الجمال يتبعه اينما بدا له . فيستعذبه في وجوه الملاح ، وفي
أصوات المغنين والقيان ، وفي الطبيعة وما عليها من صور
وألوان . واللذة عنده شهوة الى المآذب ، فهو منهوم لا يشبع
من طعام وفواكه وشراب .

بيد ان الشاعر لم يوفق في حياته ، فلم ينل ما كان يؤمله من
المال والحظوة لدى ذوي الشأن . ولم يصل الى ما كان يطمح اليه
في المجتمع .

ورافق هذا الإخفاق ، ضيق في خلقه ، واضطراب في
أعصابه ، وخلل في مقاييسه العقلية ، وميل ساذج أخرق ،
الى التشاؤم والتطير ، كثرت فيه النوادر والأقاويل ؛ على شيب
مبكر ، وصلح فاضح بغيض ، في نظره ، كان يستحي به ،
فيعمل على ستره بعمامة :

عزمتُ على لبس العمامة حيلةً
لتسترَ ما جرّت عليّ من الصلح

الى أدواء وعلل متعاقبة ، ظاهرة وخفية وتترت حواسه ،
وصفرت وجهه ، وأزاغت بصره ، وأضعفت سمعه ، وأوهنت
قواه ، وقوّست ظهره :

وأضحت قنأة الظهر قوّسَ متنها
وقد كان معدولاً ، وإن عشتُ فخّخا
وأحدثَ نقصانُ القوى بينَ ناظري
وسمعي وبين الشخص والصوت برزخا

وغرّبت مشيته :

إن لي مشيةً أغربلُ فيها
آمناً أن أساقطَ الأسقاطا

ونقلته من الشباب الى الشيخوخة ، فعلا رأسه المشيب وله
من العمر احدى وعشرون سنة :

فَظَلُمُ اللَّيَالِي أَنَّهُنَّ أَشْبَنِي
لِعَشْرِينَ يَحْدُوهُنَّ حَوْلُ مُجْرَمٍ

وفاته

مات ابن الرومي مسموماً . سمّه القاسم بن عبيد الله الوهبي وزير المعتضد ، فكان يخاف هجو الشاعر وسلاطة لسانه . فدعاه الى مائدته ، ودسّ عليه من اطعمه (خشكناجة) ، وهي نوع من الحلواء ، مسمومة . فلما أكلها أحسّ بالسّم ، فقام . فقال له الوزير : الى أين ؟ فقال : الى حيث ارسلتني . فقال له : سلّم على والدي . فقال ابن الرومي : ليست طريقي على النار .

على ان بعض الدارسين ، وفي طليعتهم عباس محمود العقاد ، يشكون في صحة هذه الحادثة بدليل ان عبيد الله ، والد الوزير المذكور ، كان لا يزال على قيد الحياة سنة وفاة الشاعر ، فلا معنى لقول القاسم : سلّم على والدي .

وهذه رواية لابن رشيق في « العمدة » تطلعنا على ان عبيد الله أبا القاسم هو الذي أوعز الى ولده بأن يتخلص من الشاعر لأن لسانه أطول من عقله .

ثقافته

جاء في دائرة المعارف ^١ ان الشاعر تثقف بثقافة عصره الشاملة : لغةً ، ونحواً ، وأدباً ، وعلوماً أصيلة ، وعلوماً دخیلة كذلك حتى المنطق ، والرياضيات ، والطبیعیات ، والنجوم ، والفلسفة في تشعباتها الدينية والمدنية ، وما يتصل بهذه المنقولات من أساطير اليونان ، وحكايات الفرس ، ومرويات الهند ، الى سائر ما كانت تدور عليه ، في تلك البيئة المختمرة ، مباحثات رجال الفكر . وكان ابن الرومي يخالطهم ، ويساجلهم ، ويناقشهم ، حتى نسبته المعري الى تعاطي الفلسفة ، وقال المسعودي ان الشعر « كان أقلّ أدواته » .

اما في الشعر فكان معجباً بالأخطل التغليي . واما في النثر فكان معجباً بالمحافظ :

ألم تجدوني آل وهبٍ لمدحكم
بشعري ونثري أخطلاً ثم جاحظاً ؟

أدبه

لابن الرومي ديوان ضخم في الشعر . جمعه أبو بكر الصوري ورتبه على حروف المعجم ، وطبع الجزء الأول منه في القا

١ - دائرة المعارف ص ١٢١٠ ف. أ. ب.

سنة ١٩١٧ مع شرح للشيخ شريف مسلم. ثم نشر كامل كيلاني،
مختارات من شعر ابن الرومي، جعلها ثلاثة أجزاء في مجلد
واحد، وصدرها الاستاذ عباس محمود العقاد بمقدمة في عبقرية ابن
الرومي.

وديان ابن الرومي، يحوي جميع فنون الشعر العربي المعروفة
من مدح وهجاء وثناء وغزل ووصف وفخر وعتاب وطرد...
وله في النثر رسائل صغيرة الى الوزير القاسم والى بعض
أصدقائه. ومنها نبذة في تفضيل النرجس. ونثره على العموم،
حسن الأسلوب متين العبارة شبيه بأسلوب الجاحظ.

شعره وشاعريته :

قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان) : هو صاحب النظم
العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة
فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة ، ولا يترك
المعنى حتى يستوفيه الى آخره ولا يبقى فيه بقية .

وقال ابن رشيق في (العمدة) : وكان ابن الرومي ضئيلاً
بالمعاني ، حريصاً عليها . يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال
يقالبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتى
يميته ، ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد . وقال أيضاً : واما ابن
الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه ، وحسن
افتنانه .

وجاء في الموسوعة اللبنانية : وهذا الشعر متنوع الأغراض ،
وان كان يجري في الظاهر على الأنواع المصطلح عليها قديماً
كالمدح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ... الا انه يخالف شعراء
العرب قاطبة في النظرة الفنية الى الشعر ، وفي عملية اخراجه
تصميماً وتأليفاً . فليس الشعر في نظره أسلوباً من الكلام فائقاً
في مدح شخص أو هجائه أو رثائه ، أو في وصف حالة ، أو في
ابداء رأي . انما هو التعبير عن شخصيته في متقلب صروف
الحياة عليها . يقرض الشعر كما يأكل ويشرب ، وينام ويفكر ،
ويحدث . حاجته اليه حاجته الى التنفس والغذاء ، وسائر
مقومات العيش . له في نظمه وتذوقه لذة تعادل لذائذه المادية
استمتاعاً حتى التهالك والاستهتار . فلا فاصل في حياته ، بين
الذائد ، ولا تمايز ، ولا تنسيق ... حتى ليصح القول : ان
شعر ابن الرومي انما هو شخصيته منظومة بإخلاص ، وصرامة ،
وطبيعة ^١ .

مزاياء الفنية

يرى الدكتور أنيس الخوري انقديسي ان شعر ابن الرومي
يمتاز بأربع مزاياء ^٢ .

١ - دائرة المعارف ص ١٢٣ ، ف. أ. ب.

٢ - أمراء الشعر العربي ، ص ٢٤١ .

١ - طول النفس :

ونريد به مقدرة الشاعر على الإسهاب في النسيج دون تعب أو تكلف ظاهر . فإنك لا ترى لشاعر عربي ما تراه لابن الرومي من كثرة المطولات التي تتجاوز المئة والمئة والخمسين بيتاً ، وأكثرها حسن السبك كثير الألوان المعنوية . وبديهي ان تجد في مطولات كهذه بعض الحشو والتكرار وشيئاً من السفسفة ، ولكنها عموماً تدل على غزارة مادته اللغوية وعلى مهارته في استخدام الألفاظ لمعانيه . فهو فياض كثير الإطناب والمراجعة بعيد المدى في ميدان النظم ، ولكنه لا يصل الى آخر مداه منهو كأمقطع النفس ، ولا تشعر في شعره بتكلف مضنٍ أو جهادٍ عنيف .

٢ - استيفاء المعنى :

وقد عبّر عن ذلك ابن خلكان في وفيات الأعيان إذ ينعت ابن الرومي : بالشاعر المشهور ، صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها في أحسن صورة . ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره ، ولا يبقى فيه بقية .

وكذلك قول ابن رشيق القيرواني^١ : « يأخذ المعنى

١ - من كبار أدباء العربية القدامى في المغرب . له كتاب شهير في النقد الأدبي « العمدة » .

الواحد ويولده ، فلا يزال يقلّبه ظهرأ لبطن ويصرّفه في كل
وجه والى كل ناحية حتى يميته ويعلم انه لا مطمع فيه لأحد .
ومثال ذلك قول ابن الرومي في الصداقة والصديق :

عدوك من صديقك مُستفادُ

فلا تستكثرن من الصّحاب

فإنّ الداء أكثر ما تراه

يكون من الطّعام أو الشراب

إذا انقلب الصديق غدا عدواً

مبيناً ، والأُمورُ إلى انقلاب

ولو كان الكثيرُ يطيّبُ كانت

مصاحبةُ الكثير من الصّواب

ولكن قلما استكثرَت إلا

سقطت على ذئابٍ في ثياب

فدع عنك الكثير ، فكم كثير

وما اللّججُ الملاحُ بُمروياتٍ ،
وتلقى الرّيّ في التّطفِ العذابِ

فإذا تأملنا هذه الأبيات وجدنا ابن الرومي يستهلها بفكوة أوحى بها إليه تجاربه المرة في الحياة وهي : ان الانسان لا يكتسب الأعداء إلا من الأصدقاء ، فعليه ان لا يستكثر من الأصحاب . ثم يجعل باقي الأبيات شرحاً وبسطاً لهذه الفكرة ، وقياسات يضر بها لنا براهين على صواب رأيه .

وهكذا نفهم قول ابن رشيق : «يقلّب المعنى ظهراً لبطن» كما ان النقاد أجمعوا على ان ابن الرومي شاعر معنى أكثر منه شاعر مبنى . بل هو في أحيان يستخف استخفافاً عجيباً ببلاغة التركيب كقوله :

وإِخَالُ الْإِيوَانِ لَوْ كَانَ يَسْعَى
جاء سعيّاً إِلَيْكَ قَبْلَ الْأَذَانِ
ولو أفاكَ كَي تُمْهَرَجَ فِيهِ
غير أن ليس ذاك في الإمكانِ

فالشرط الأخير من البيت الثاني : غير ان ليس ذاك في

الإمكان ، ضعيف جداً ، وهو بالنثر أشبه ، ولو حسب نثرأ
لكان كذلك ضعيفاً ركيكاً .

غير ان الاستاذ مارون عبود يرى ان ابن الرومي في اخراج
صوره « كخاصّ قصب السكر ، يظل في عراك مع تلك الألياف
حتى يمتصّها ... لهذا نراه اذا ظفر بمعنى طريف لا يحصره في
بيت واحد ، بل يشرحه بأبيات قليلة ، ويظل يفعل ذلك حتى
يفقده روعته ، ويخسر جماله الفني ، فيبتعد صاحبه في هذا عن
العرب الذين لا تروقهم الثثرة ولا يحبون إلا الإيجاز... ولو شئت
أن أنفي ما في طويلاته من مثل هذه الحماقات لما أبقيت إلا ربع
ديوان ابن الرومي ولقلت له في قصائده تلك ما قاله هو
لصاحب اللحية : ألقها عنك يا طويلة ... »^١

٣ - دقة الاحساس بالمؤثرات الطبيعية :

ومما تميّز به شعر ابن الرومي ، دقة تصوير الشكل واللّون
والحركة . كقوله في وصف الأحذب :

قصرتُ أخادُعه و غار قذالُه
فكأنّه متربّصٌ أن يُصفعا

١ - الرؤوس : ص ١٢٨ .

وكأنما صُفعت قفاه مرةً
وأحسنَ ثانيةً لها فتجمعا

وكذلك قوله في تشبيه النفسج في بدء تفتحه بـ « أوائل
النار في أطراف كبريت » . ثم قوله في الخباز الذي يرقق
العجين أرغفة :

ما بين رؤيتها في كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
في صفحة الماء يُرمى فيه بالحجر
وكلها من التصوير الدقيق الغريب في دقته .

٤ - ميله الى تشخيص ما لا يعقل :

وميزة أخرى تميز بها ابن الرومي ، انه ينسب الى الجماد
وغير العاقل ، ما يختص به الأحياء والعقلاء . من ذلك قوله
في الأرض إبان الربيع :

تبرّجت بعد حياء وخفر
تبرّج الأنثى تصدّت للذكر

هذا وقد أغرم ابن الرومي بالطبيعة فأحبّ الربيع والبساتين
والأزهار ، وجداول الماء ، والطيور المغرّدة ، والنسمات
المعذّبة ، والغروب الحزين ، والليالي الرقيقة ، والأسرار
الناعمة . ولعلّه وجد فيها عزاء عمّا لحق به من الغبن وقسوة
الأقدار ، فتفنن في وصفها ، وبثّ فيها أحياناً حياة من الحياة
البشرية ، فنسب إليها ما ينسب إلى البشر من أفعال وأحاسيس ،
فإذا الشمس عند الغروب « تودّع الدنيا لتقضي نحبها » وإذا
زهر الحديقة يبتلّ بالندى « كما اغرورقت عين الشجي لتدمعا »
وإذا الموقف كله موقف « فراق عاجل بين حبيبين متصافيين » .

وهكذا يتضح لنا ان ابن الرومي كان أطول الشعراء نفساً ،
وأكثرهم اختراعاً للمعاني ، واستيفاء لها ، وأبعدهم نظراً في
دقائق الأشياء ، وأقدرهم على تشخيص ما لا يعقل ، وأقربهم إلى
وحدة الموضوع .